الإيمان والعقل في منظور البابا يوحنّا بولس الثاني

الأب بول ڤالادييه اليسوعيّ*

ما الذي يهمّ المؤمنين الكاثوليك، وبالأكثر عامّة جمهورهم، في رسالةٍ بابويّة جامعة حول علاقات الإيمان بالعقل؟ أليس الأمرُ محصورًا بموضوعاتٍ لا تتعلّق إلّا بالفلاسفة واللاهوتيّين؟

لا شكّ في أنّنا نخدع أنفسنا إذا ما أرتأينا مثل هذا الرأي، لأنّ جرأة البابا، عندما أذاع الرسالة الجامعة تلك (في تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٩٨)، أخذت بعين الاعتبار أنّ الكنيسة، أو في دائرة أوسع، الإنسانيّة بوجه العموم، معنيّتان مباشرة بهذه القضايا. أليس كلّ كائن بشريّ في موضع السعي إلى فكّ سرّ معنى حياته ومعنى مصيرنا العامّ، وإلى كشف أمر الألم والموت، وإلى التساؤل عن الحقيقة ومستلزماتها؟ فمن المنطلق هذا، على ما يقوله البابا، كلّ إنسان هو فيلسوف، وفي المقابل، إنّ أسئلة الفلاسفة تعني كلّ إنسان أيضًا، وبخاصّة إذا كانت تلك الأسئلة مطروحة بوجه جيّد، وإذا كان الفلاسفة لا يقفلون على أنفسهم في جدالات سطحيّة، وإذا تجرّأوا على مقاربة القضايا الأساسيّة. وهذا ما يشكّل باعثًا من البواعث على تأليف الرسالة وإذاعتها. فيوحنّا بولس الثاني يريد أن يشجّع الفلاسفة على معالجة الأمور في أساسها، وعلى القبول بمقاربة القضايا الميتافيزيقيّة الأساسيّة، إذ إنّ الرهانات البشريّة المنوطة بتلك القضايا خطيرة: هل هناك من حقيقة؟ وكيف الوصول إليها؟ وهل تؤمّن لنا

(*) أستاذ الفلسفة في كلّيّة الفلسفة واللاهوت اليسوعيّة، باريس.

تلك الحقيقة الحياة؟ وهل نستطيع بناء حياتنا عليها؟

إنّه إذًا ليلفت النظر على وجه التأكيد، وإنّه لأمر فريد من نوعه في تاريخ الكنيسة الكاثوليكيّة الطويل أن ينحاز أحد البابوات بهذا الوجه العلنيّ وبلهجة حارّة إلى الفلسفة، وأن يضع نفسه في موضع المدافع عن العقل. ولا شكّ في أنّ هذا الأمر هو مبعث تفكير للمعاصرين الذين يدمجون بين الدين المسيحيّ والتجهيل ورفض الفكر. ولا شكّ في أنّنا نستشعر ما يريد أن يعلنه البابا عبر ما تقدّم: إنّ القلق يتملّكه أيضًا جرّاء عدد من نزعات الفلسفة الحديثة، وهو لا يتردّد في التنديد بانحرافات يعتبرها خطيرة. وإذا كانت اللهجة العامّة في رسالته الجامعة إيجابيّة ولا تتضمّن بعض الإنذارات إلّا عرضًا، فإنّه يُعبِّر عن قلقه حيال الانحرافات التي حفرت هوّةً بين العقل والإيمان، بين الفلسفة واللاهوت، وذلك منذ القرون الوسطى على حدّ قوله. والواضح أنّ ذلك الفصل هو ضارّ للفلسفة وللاهوت على حدّ سواء. إنّه ضارّ للفلسفة لأنّها، كما أسلفنا، توشك أن تُغرب عن بالها القضايا الأساسيّة، وكذلك توشك أن تنسى أنّ الوحي المسيحيّ يُنعشها وينتح أمامها آفاقًا جديدة.

إلّا أنّ الفصل ليس أقلّ خطرًا على اللاهوت وكذلك على حياة الإيمان بعامّة. وعلى هذا المستوى، فالرسالة الجامعة تتعلّق بالمؤمنين جميعًا. وإنّنا لواهمون كلّ الوهم، إنْ اعتبرنا أنّ الإيمان يكون قويًّا بمقدار ما يكون العقل ضعيفًا، إذ إنّ إيمانًا لا يقبل بأن يُعلِّل نفسه بنفسه، أي أن يمرَّ بمحنة الفكر، من شأنه أن ينغلق على نفسه في العاطفيّة والباطنيّة الفارغة والإيمانيّة. ولا تخلو الرسالة، في هذا السياق أيضًا، من الشجاعة، إذ إنّها صدرت في عصر تملّكته اللاعقلانيّة تحت أشكال الشيَع والأصوليّات، وفي وقت تعرف فيه الكنيسة أنواعًا مُقلقة من الأوهام التي تعتقد أنّها تستطيع الاعتماد على قراءة الكتاب المقدّس قراءةً نقديّةً مباشرة. وعليه، فالنصّ يحذّر من النزعات اللاعقلانيّة، وهو يدعو بخاصّةٍ إلى تكريم العقل كما هو واجب على كلّ إنسان وكلّ مؤمن.

إنّ الأفكار البابويّة هذه مثيرة للاهتمام من منظور كاثوليكيّ، بمقدار ما يفتح البابا المجال أمام تعدّديّة فلسفيّة واسعة، وبمقدار ما يعزّز الثقة بالعقل الذي لم يكن دومًا محطّ اهتمام في المذهب الكاثوليكيّ، إذ إنّ الفلسفة كانت عنده بمثابة الضيف، خلافًا للبروتستانتيّة بوجه عامّ. والبابا لا يقول بأنّ ثمّة «فلسفة مسيحيّة»، ولا يطلب إلى الفلاسفة الكاثوليك أن يتبنّوا الفلسفة التوماويّة مرجعًا أساسيًّا لهم. ومع ذلك، وبالرغم من هذا الانفتاح اللافت النظر إلى حدّ بعيد، فإنّه من الصعب ألّا نتبيّن بعض التناقضات في هذه الرسالة. في الواقع، وفي الوقت الذي لاحظنا فيه، من ناحية، تصديقًا عميقًا للمباحث الفلسفيّة الأشدّ اختلافًا، يبدو أنّ النصّ يُبرز ويميّز بوجه كلّيّ نوعًا واحدًا من الفلسفة الميتافيزيقيّة التي تعتمد على حقيقة محدّدة مسبقًا ومعروفة. فهل نحن أمام تنوّع واسع، أم أمام نموذج مفضَّل، لا بل نموذج وحيد؟ وإذا كان النصّ يضع ثقته بالعقل «المستقلّ» (والعبارة تتكرّر مرارًا)، فإنّه يمنح سلطة التعليم الرومانيّة حقّ النظر في استعمال العقل استعمالًا صحيحًا ومستقيمًا. فكيف يتمّ التشديد في الوقت عينه على استقلاليّة العقل وعلى المطالبة بالمراقبة السلطويّة على العقل؟ إنّنا لن نستطيع أن نمنع الفلاسفة من التعبير عن تعجّبهم: هل العقل يُعطى حقّه بالتمام حتّى النهاية بوصفه عقلًا مستقلًّا؟

إلّا أنّه لا بدّ من أن نستخلص من هذا النصّ، على وجه الخصوص، أنّه يشجّع العقل في كلّ مسعًى بشريّ، ولا سيّما في مسعى الإيمان. وهنا أيضًا كلّ مؤمن مدعوّ إلى طرح السؤال على نفسه: هل الإيمان هو إيمان عقلانيّ، أم إنّه نوع من العاطفيّة المجرّدة التي لا محتوى لها ولا أساس؟ هل نحن نكرِّم حقًّا الآب والحكمة التي يعلنها لنا في ابنه «الكلمة» «اللُوغُوص» (Logos)، إنْ لم نكرِّم اللوغوص، أي العقل، فينا؟ هل التكريم والعبادة اللذان يحقّان لله يستطيعان أن يستغنيا عن عقلنا وذكائنا؟

(نقله إلى العربيّة أ.س. دكّاش)

عن منشورات دار المشرق في الإيمان